قصة كتاب الديارات

للشابشتي

للأستاذ كوركيس عواد

إن كان لكل شيء قصة ، فلكتاب الديارات للشابشتي قصة ، أرويها فيما يلي ، وذلك على أثر المقال الذي نشره عنه الأستاذ صلاح الدين المنجد ، في العدد ٣٦٨ من الرسالة الغراء :

لقد رغبت في نشر « كتاب الديارات » للشابشتي ، منذ سبع سنوات ، حينما أخرجت للناس في سنة ١٩٣٤ كتابي المسمى « أثر قديم في العراق : دير الربان هرمزد » القائم بجوار الموصل . فقد كان صاحب المعالي الأستاذ « يوسف غنيمة » ، نبهني حينذاك إلى أهمية كتاب الشابشتي ، بالمقدمة التي وضعها لكتابي المذكور . فازدادت رغبتي فيه يوماً بعد يوم ، وقد مضت سنة ونصف سنة منذ اختمرت عندي فكرة نشره . فأقدمت على العمل بعد أن أعددت له عدته ، ليكون ما أقوم به على الوجه العلمي الذي يستحقه هذا الكتاب الجليل ، ويرتضيه أرباب البحث من الأدباء والمؤرخين

وكتاب الديارات للشابشتي لم يبق منه اليوم سوى نسخة وحيدة في خزانة برلين برقم (٨٣٢١) . وإن تحرينا وجه التدقيق قلنا إن هذه النسخة البرلينية ما هي إلا قسم من الكتاب الأصلي ، فهي مخرومة من أولها بمقدار لا يمكن معه معرفة عدد أوراقه الذاهبة ، كما أنها ناقصة من وسطها بعض النقصان . على أن كافة النسخ المعروفة اليوم لكتاب الديارات ، سواء المصورة منها والمخطوطة ، مصدرها هذه النسخة الفريدة التي كتبت سنة ٦٣١ هـ . فهي ، ولا مراء ، أمهن جميعاً ، ولولاها لكانت خسارة الأدب فادحة

أما حصولي على نسخة هذا الكتاب ، فكان على يد العلامة الأب أنستاس ماري الكرملي ، فإنه في إحدى كينونته في مصر وذلك في سنة ١٩٣٨ ، حصل على النسخة المصورة التي كانت بيد المستشرق الدكتور أ . فيشر A. Fischer وكان قد صورها قبل حرب سنة ١٩١٤ ليتولى طبعها هو بنفسه ، لكن لما تمددت أشغاله وأحب أن يقدم على طبع كتاب الديارات معجمه الملحق بمعاجم لغوي العرب ، دفع النسخة المصورة إلى الأب المذكور ، لعله أنه قد عزم على طبعه . وبعد ذلك نقل الأب نفسه وبقلمه نسخة ثانية معتمدة ، فصارت النسخة بهذا نسختين . ثم لما توافرت شغاله ناط بي نشر الكتاب بعد أن علم مبلغ رغبتي في ذلك ، فدفع إلي نسختيه المذكورتين ، قبل سنة ونصف سنة ، فاعتمدت عليهما في كتابة نسخة ثالثة بيدي ، كانت عنايتي بنقلها وضبطها تفوق حدود الوصف ، ثم أعدت مع الشكر النسختين المصورة والخطية إلى صاحبهما . وأكببت بعد ذلك على دراسة نسختي ، واجتهدت بروية دقيقة في ضبط ألفاظها وتحقيق ما فيها من أعلام الأشخاص والمواقع والشؤون العمرانية والأخبار التاريخية والروايات الأدبية والأشعار وما إلى ذلك . وأفرغت كنانة وسعي في الرجوع إلى عشرات من الكتب العربية وكنت قد خصصت بضع ساعات من كل يوم ، مدة سنة وبعض أخرى ، لخدمة هذا الكتاب ، وتصحيحه ، والتعليق عليه بما لا مزيد عليه من العناية به

وقد وجدت من الخير لهذا الكتاب أن أعود إلى المؤلفات الأرمنية أيضاً ، وقد مكنتني معرفتي لهذه اللغة من الوقوف على عدد منها أربى على الثلاثين ، وكلها ذات مساس بموضوع الديارات ؛ والحق أنني خرجت منها بفوائد جليلة . ورأيت من الضروري الرجوع إلى طائفة صالحة من المؤلفات الأفرنجية فضلاً عن المؤلفات العربية الحديثة

وكان الأب أنستاس ، قد سلّم نسخته المكتوبة ، بعد انتساخي عليها نسخة ، إلى صديقنا المحقق الدكتور مصطفى جواد ، ليطّلع على هذا الكتاب ، ويقيّد في أثناء مطالعته له ما يعنّ له من الملاحظات والتصويبات على هوامش النسخة . فطالعها الدكتور مطالعة مدققة ، وذلك شأنه في كل ما يطالع ، فصحح من أغلاطها ، وكشف وجه الصواب عن تحريفاتها ، وقوّم ما انآد منها على أيدي النسّاخ ، كما حقق أموراً جمّة من أعلامها ، وحل كثيراً من مغلقاتها . وقد سمح لي كل منهما بنقل هذه الملاحظات الثمينة ، لأنهما يرقبان الكتاب ويأملان أن يخرج في أتم ما يمكن من الإتقان . وقد نقلت تلك الملاحظات شاكراً فضلهما ، وأدخلت كل واحدة منها مقرونة باسم صاحبها الدكتور مصطفى ، في محلها من حواشي الكتاب

فأنت ترى أن كتاب الديارات للشابشتي، قد انتقل بعد كل هذه الجهود من عالم إلى عالم، وأضحت أخباره ومروياته مدعومة بما يؤيدها من الأسانيد الواردة في المراجع القديمة الأخرى

وقد أضفتُ إلى الكتاب ملحقات جمّة، في أحدها معلومات طريفة بتلك الديارات الساقطة تراجمها من مخطوطة برلين، وذلك بعد أن ثبت لي لزوم اشتمال الأصل عليها. كما وضعتُ ملحقاً ثانياً مطولاً، يكون «مستدركاً» على الشابشتي، وفيه أخبار الديارات التي لم يتطرق إلى ذكرها، وبينها ما هو من الخطورة الأثرية والتاريخية والأدبية بمكان رفيع. وبلى ذلك ملحقات أخرى عمرانية وتاريخية وبلدانية أضرب عن ذكرها الآن صفحاً قصداً إلى الاختصار. وأخيراً جعلت «الفهارس» المتنوعة، وكلها في غاية الضبط، بحيث تكشف عن مكنونات الكتاب المختلفة، وتيسّر للقارئ مراجعة مضموناته. وكان قصدي من كل ذلك، أن يكون كتاب الشابشتي، مع المستدرك الذي وضعتُهُ عليه وسائر الملحقات والتعاليق، أتمّ وأوفى كتاب الديارات

وقد أنهيتُ عملي قبل أشهر، ونويتُ إذ ذاك عرض الكتاب على الطبع؛ غير أنه قد صدمني غلاء الورق وكثرة النفقات، وهما أمران ناشئان عن قسوة الأحوال الحاضرة، فاضطررت إلى تأجيل نشره إلى فرصة ثانية

هذا ولعل من القراء من يتذكرون أنه مرت في هذه المجلة قبل ما يقرب من ثلاثة أشهر (أنظر الرسالة «العدد ٣٦٠»، حاشية ٣ من الصفحة ٨٩٥ ب) إشارة صريحة تذكر أنني عازم على إخراج هذا الكنز من مدفنه. ثم إن عندنا في العراق عدداً كبيراً من المؤرخين والأدباء وأولي البحث يعلمون الشيء الكثير من أمر اشتغالي بتحقيقه والعناية به

وفي هذا اليوم وصل إليّ العدد ٣٦٨ من الرسالة الغراء، وإذا فيه مقالة وجيزة للأستاذ صلاح الدين المنجد، عنوانها «كتاب الديارات» للشابشتي. فاستبشرتُ بها واندفعت إلى مطالعتها حرصاً مني على الوقوف على كل ما من شأنه أن يكشف لي شيئاً جديداً من أمر هذا الكتاب أو مؤلفه. غير أنني وإن لم أخرج منها بما كنت أنتظر ولا بأقل من ذلك، قد سرني منها أن كاتبها ينوي نشر هذا الكتاب بعد أن ظلّ مدفوناً في زوايا الخزائن، كما سرني أنه سينشر منه نبذة في العدد القادم من الرسالة الغراء

وإن من طريف الاتفاقات أن يُقدم باحثان على نشر كتاب واحد، دون أن يعلم أحدهما بما يعمله الآخر، وهذا سيكون من مصلحة الثقافة، وهل ذلك إلا دليل واضح على خطورة ذلك المصنف الجليل وأهميته البالغة، التي أغرت اثنين بخدمته وإعداده للنشر! فإن كان الأمر على ما ذكر، فما عسى أن يمنعني عن نشر الكتاب بالوجه الذي رسمتُهُ لنفسي، سواء أعجِلَ غيري على نشره أم لا. هذا وإني موقن أن ما بذلته من العناية وطول البحث في سبيل هذا المؤلف يتطلب مني ألا أهمل نشره، بل لا أتردد في ذلك مهما كان من الأمر، ما دامت غايتي من ذلك كله خدمة العلم لذاته

ثم إن ملاحظات عنّت لي في أثناء مطالعتي لمقال الأستاذ المنجد، أرجو أن يتغاضى عن بياني لها هنا، جلاءً للحقيقة وحباً للفائدة

أولاً: ذكر أن نسخة المجمع العلمي العربي بدمشق مصورة على نسخة أحمد تيمور باشا، المصورة على نسخة خطية فريدة في خزانة برلين برقم ١١٠٠، والصواب أنها برقم ٨٣٢١ كما يلاحظ في قائمة مخطوطات برلين العربية[1]

ثانياً: وقال أيضاً: «وأول من نقل عن هذا الكتاب [يقصد كتاب الديارات]، ونوه به هو السيد حبيب الزيات، فقد أخرج للناس في تموز من عام ١٩٣٥ [كذا، والصواب عام ١٩٣٨] عدداً خاصاً من مجلة المشرق الكاثوليكيه في بيروت عن الديارات النصرانية في الإسلام، فنقل عنه نقولاً كثيرة.»

قلنا: الذي نعلمه يخالف ذلك كثيراً؛ فقد تبينا من نَقَلَ عن هذا الكتاب من المعاصرين، وتعقبنا نقولهم، فوجدنا أن أقدمهم في النقل المستشرق السويسري متز Adam Mez

(١) يلاحظ أن واضع هذه القائمة، المستشرق هلوردت Ahlwardt قد نسب هذا الكتاب إلى أبي الفرج الأصفهاني. وتابعه في شيء من هذا الوهم جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (٢ : ٢٨٣) والمعروف أن لأبي الفرج كتاباً في الديارات، أقدم من كتاب الشابشتي، أخفته يد الزمان. وقد وقفنا على طرف منه في النقول المتفرقة في بعض المؤلفات العربية القديمة

المتوفى سنة ١٩١٧ ؛ فقد اقتبس فقرات عديدة منه فى كتابه « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، ولقد أحصينا فى الجزء الأول فقط الذى نقله إلى العربية الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة تسعة عشر موضعاً اقتبس فيها من كتاب الديارات

وتلاه المستشرق الألمانى سخاو Eduard Sachau فنشر سنة ١٩١٩ بالألمانية رسالة ثمينة تقع فى ٤٣ صفحة من القطع الكبير ، عنوانها « كتاب الديارات للشابشتى » Vom Klos - terbuch des Sabusti وصف فيها هذا الكتاب ، كما أتى على خلاصة بحوثه ، ثم ترجم منه نبذاً مختلفة ، بينها تلك الحفلة العباسية الرائعة التى جرت فى قصر بركوارا فى سامراء فى عهد المتوكل الخليفة العباسى

وتلاها الأستاذ المحقق حبيب زيات فنقل من كتاب الديارات هذا ، سنة ١٩٢٧ ، فقرتين فى بحثه المعنون « السفن والمراكب فى بغداد فى عهد العباسيين » المنشور فى مجلة لغة العرب (٥ [١٩٢٧] ص ٤٦١ — ٤٦٥) . ثم نقل عنه ثانية سنة ١٩٢٨ نقولاً كثيرة فى بحثه النفيس « نقد كتاب الديارات الوارد فى الجزء الأول من مسالك الأبصار » المنشور فى لغة العرب أيضاً (٦ [١٩٢٨] ص ٣٢٢ — ٣٤٢) . وفعل ثالثة سنة سنة ١٩٣٥ ، فنقل منه فى كتابه « الصليب فى الإسلام » مرتين ، وكان آخر نقوله عن الشابشتى ما أورده فى كتابه القيم « الديارات النصرانية فى الإسلام » وهى التى أشار إليها الأديب المنجد بكونها أقدم النقول التى وقف عليها !

ولنا أن نضيف إلى ما ذكرنا ، تلك الفقرات الكثيرة التى نقلها الأستاذ محمد كامل حسين فى كتابه « فى الأدب المصرى الإسلامى »

إن كان الشىء بالشىء يذكر ، فنقول إن هنالك جهوداً مختلفة بُذلت فى سبيل إخراج هذا الكتاب إلى حيز النشر . أقدمها يعود إلى همة المستشرق هير F. J. Heer حسبما أشار إلى ذلك البحاثة لسترنج G. Le Strange فى حاشية الصفحة ٢١١ فى كتابه Baghdad During the Abbasid Caliphate وكان قد سبق له فى سنة ١٨٩٩ أن وصف هذا الكنز الثمين فى بحث له فى الخطورة التاريخية والبلدانية لمعجم ياقوت الحموى .

وعلى ما يظهر لنا لم يوفَّق المذكور لنشره حينذاك ، لأسباب لا أعلمها

ثم تلتها جهود المستشرق سخاو فى نشر رسالته المنوه بها آنفاً . فقد عرف بها كتاب الديارات للعلماء ومتتبعى الآثار القديمة العربية ، ووقفهم على خلاصة مضموناته ، غير أنه لم ينشر الأصل بكماله

وكان المستشرق فيشر قد عزم — على ما أخبرنى به الأب أنستاس — على نشر هذا الكتاب أيضاً وسبقت منا الإشارة إلى ذلك ؛ غير أنه عدل عن ذلك للأسباب التى ذكرناها فى صدر كلامنا

هذا ولدينا فى هذا الشأن تفاصيل أخرى كثيرة نرجئ نشرها إلى المقدمة المسهب فيها التى صدّرنا بها هذا المؤلف النفيس

ثالثاً : قال الأستاذ المنجد ما نصه : « ووضعتُ للأديار مخططاً يبين مكان كل منها ... »

قلنا : إن فى هذا القول شيئاً كثيراً من التجوّز ، إن لم نقل من الادعاء ! فإن كتاب الديارات للشابشتى يتناول — بحسب النسخة الوحيدة البرلينية — أخبار خمسة وخمسين ديراً . منها : ثمانية وثلاثون فى العراق ، وثلاثة فى سورية ومثلها فى فلسطين ، وثلاثة أخرى فى تركية ، والباقى وهو ثمانية فى مصر . ومعلوم أن أغلب هذه الديارات عراقية

فأنا مع تتبعى لموضوع الديارات ، منذ أكثر من عشر سنين ، وكونى امرأ عراقياً لا يدع الفرصة تفوته دون الوقوف على ما يتعلق بشؤون بلاده من الوجهات الأثرية والتاريخية والبلدانية . . . أزيد على ذلك أنى أحد موظفى دار الآثار القديمة فى العراق ، وهذه الدار أولى من غيرها بتعقب أمثال هذه المواقع الأثرية ، بل هى صاحبة الدراية بها . . . نعم ، مع كل ذلك ، لم أستطع بعد الجهد تعيين « المواقع الحقيقية » إلا لعشر ديارات عراقية من تلك الثمانى والثلاثين التى تكلم عليها الشابشتى ! أما ما تبقى منها ، فلا أثر لها ألبتة اليوم ، كما لا يمكن الاهتداء إلى مواقعها وتعيينها بصورة علمية خطية مضبوطة يصح الركون إليها . وبعد هذا لا ندرى كيف أمكن للأستاذ المنجد أن يضع « مخططاً يبين مكان كل منها » !